الشعر المغربي بين
التأثر والتأثير

أ.أمينة بن جماعي
جامعة تلمسان

لا يهمنا من هذا البحث أن نحدد جغرافية المغرب العربي، ولا يهمنا الحديث عن من سكن أولا في هذا التحديد الجغرافي، ولا عن كيفية عيش هؤلاء السكان، ولا عن علاقاتهم المتميزة أو المتشابهة مع غيرهم من الأمم والشعوب، ولا يهمنا الحديث أيضا عن أصل وتركيبة بل ونوعية التخاطب الذي كانوا عليه، ولا كيف فصحت ألسنتهم فاستقامت لغتهم، عربية لا عيب فيها.

إن اهتمامنا في هذا البحث يتوجه نحو الشعر المغربي بعد أن أصبح حقيقة لا مرية فيها لتطرح بإزائه بعض الإستفهامات التي تظل مسوغة أدبيا.

هل أن الشعر المغربي هذا ولد من العدم ليصير على ما صار عليه أم أنه امتداد لنظيره في المشرق خط خطواته الأولى وهو يمسك بيده إلى ان استقام عوده واشتد فانفرد بذاته؟

الإجابة على هذه الاستفسارات تجعلنا نعود إلى بعض الدراسات التي لم تتناول الشعر المغربي إلا متصلا بأخيه المشرقي اعتمادا على ما تشابه وتماثل من سمات بينهما هذا التماثل الذي أنشأ اعتقادا ظاهرا لدى الباحثين بأن "الشعر المغربي لم يكن إلا امتدادا طبيعيا للشعر المشرقي رغم بعض المحاولات التي تريد تقسيم هذا التراث العربي فتجعل مغربيه مختلفا ومناثرا لمشرقية"[1]

إذن فمبدأ تقسيم الشعر إلى مشرقي ومغربي بحكم الإختلاف والتنافر يبدو غير منطقي بالنظر إلى طبيعة الإمتداد والتواصل الذي يجمع بينهما وفيما يلي سنقف عند بعض لحظات هذا التواصل.

الغزل: كان الشعراء الجاهليون يستهلون قصائدهم به فيقفون على الأطلال ويستوقفون ويتغزلون ويتشببون ليتطور فيما بعد في العصور الموالية للجاهليين فتفرد

له القصائد الطوال وفي هذا الغرض يقول الشاعر المغربي أبو حفص عمر بن فلفول[2].

وقالوا نأى عنك الحبيب فما الذي تراه إذا بان الحبيب المواصل؟

فان أنت أحببت التصبر بعده ولم تستطيع صبرا فما أنت فاعل؟

فان الهوى مهما تكن في الحشاه وحل شغاف القلب ليس يزايل

فكم رام أهل الحب قبلك سلوة وذادهم عنها هوى متواصل

فقلت ألا للصبر مفزع عاشق وللصبر أحرى بي وإن غال غائل

سأصبر حتى يفتح الله في الهوى بوصل حبيب طال فيها الطوائل[3]

فهذه الطريقة الحوارية التي نراها في هذه الأبيات في قالوا وقلت هي نفسها ما درج عليه عمر بن أبي ربيعة [4] في غزلياته التي قلما غابت عنها هذه النمطية التحاورية حيث

يقول خليلي إذا جازت حمولها خوارج من شوطان بالصبر فاظفر

فقلت له: ما من عزاء ولا أسى بسل فؤادي عن هواها فاقصر 5

وقد تعددت معاني الحوار لتتضمن أفعالا كل قالوا وقلنا وقلت وقال وقلت وقل يقول، لتتخذ طريق الرواية والسرد أحيانا وأسلوب الاستفهام والجواب أحيانا أخرى فيكون الحوار متنفسا شعوريا يبث الشاعر خلاله قلقه المليئ بالشكوى المتألمة التي تختصر ما آل إليه من حال حينما يقول:

قال للمنازل بالظهران قد حان أن تنطقي فتبيني القول تبيانا

ردي علينا بما قلنا تحيتنا وحدثينا متى بان الذي بان

قالت: ومن أنت أذكره قال: ذو شجن قد هاج منه نحيب الحب أحزانا 6

الوصف: أما بشأن الوصف فإن الصور الوصفية التي استخدمها الشاعر المغربي هي الأخرى ما كانت لتختلفه عن ما ركبه قبلة من صور الشاعر المشرقي بل أننا في بعض الحالات لنجد ذات الصور تنطق في الشعرين نفس الأصوات يقول الشاعر المغربي ابن أبي المليح الطبيب[7].

وجالت به جرد المذاتي كأنها عذارى ولكن نطقهن تحمحم 8

فالصورة التي رسمها هنا ابن ابي المليح تكاد تكون نفس الصورة التي ابدعها امروؤ القيس حينما قال في معلقته

فعن لنا سرب كأن نعاجه عذارى دوار في ملاء مذيل 9

فتطابق الرسمان ها هنا أردفه تطابق حتى في مفردات التعبير التي بقيت تحافظ على المعنى الواحد رغم تباين العصور (مكانا وانسانا).

أما الشاعر المغربي أبو القاسم عبد الرحمن القالمي [10].فقد كان مطلعا على الأدب العربي القديم وعلى شعره خاصة يقول واصفا شهر رمضان.

لمسرور بأن تفنى على أنك من عمري 11

فلا نجد كبير اختلاف في الوصف بين هذا الذي قاله القالمي وما قاله قبلة أحد الشعراء القدامى.

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهن له ذهابا 12

وبهذا يصبح الذهاب فناء والليالي العمر ويصبح المرء الشاعر المتحدث ويبقى فعل السرور على حالته الأولى ليكون المعنى واحدا ومشتركا بين الوصفين

المدح: ولأن غرض المدح كانت تعده العرب قوام شعرها حيث كان يكفي بيت من المدح ليرفع ذكر أحياء لا ذكر لها وكان يكفي بيت آخر منه ليقوض دعائم أحياء ذاع ذكرها وعلا شأنها وقد حذا الشاعر المغربي حذو المشرقي وأخذ عنه كثيرا من أساليب وطرق وترجمة هذا الغرض الشعري بل وتبناه بذات قوة النفس فجاء لا يختلف عن مدح أبي الطيب المتنبي والبحتري وبشار يقول في هذا الغرض الشاعر المغربي ابراهيم الرقيق.

والبيض في ظلمات النقع بارقة مثل النجوم تهاوت في دجى الغسق13

إن هذا البيت كأنه قول بشار بن برد الذي لم يسبق إليه

كأن مثار النقع فوق رؤوسهم وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه 14

إن روح بشار لتتمثل في بيت ابراهيم الرقيق الذي كور نفس المفردات أو الكلمات إما تامة صريحة كما هي وإما بمعانيها فقد تكررت النقع كما هي وتكرر

الفعل تهاوى كما تكررت الأسياف بمعناها فكانت البيض وتحولت الكواكب إلى نجوم والليل إلى دجى الغسق وما دام التشابه جاء في المفردات على هذا النحو فلا غرو أن تكون التراكيب متشابهة هي الأخرى فلا فرق بين عبارة النجوم تهاوت في دجى الغسق وبين ليل تهاوى كواكبه.

كما نجد أبا المليح وهو يمدح يستعر أيضا مناظر هذا المدح من نظيره المشرقي إذ يقول.

فلما قضى حق الصلاة معظما ثنى والهدى في وجهه يتوسم 15

المنظر هذا كان قد سبقه إليه الشاعر العباسي البحتري حينما مدح فقال

حتى انتهيت إلى المصلى لابسا نور الهدى يبدو عليك ويظهر 16

فنجد قضاء الصلاة هو الإنتهاء إلى المصلى ونور الهدى الذي يبدو يظهر على محيى ممدوح البحتري هو نفس الهدى الذي يتوسم في وجه ممدوح أبي المليح وما يستنتج ويتوجب ذكره هو أن أبا المليح هذا الشاعر المغربي كان متأثرا بشكل لا لبس فيه الشاعر البحتري الذي نجده يتمثل مرة أخرى نفس طريقة المدح التي دأب عليها إذ يقول

فلا زال يقضي نفله وفروضه وبردعلاه بالمدائح معلم 17

فنجد الشطر الثاني من البيت الثاني وكأنه نظم البحتري الذي يقول فيه" ووقفت في برد النبي مذكرا".[18]

وما تجدر الإشارة إليه هو أنه حتى ظاهرة التخصص التي ميزت الشعر المشرقي في كثير من فنونه كالزهديات والرثاء والتي تحققت على أيدي العديد من الشعراء وعلى رأسهم أبو العتاهية وابن الرومي نجدها –أي هذه ظاهرة– تتكرر هي الأخرى لدى بعض الشعراء المغاربة الذين تفردوا بالخوض في فني الزهد والرثاء وأولوه جل إبداعهم إن لم نقل كله.

والشاعر المغربي بكر بن حماد واحدا من هؤلاء الشعراء يقول

قف بالقبور فناد الهامدين بها من أعظم بليت فيها وأجساد

بينا ترى المرء في لهو وفي لعب حتى تراه على نعش وأعواد

في كل يوم ترى نعشا نشيعه فرائح فارق الأحباب أو غاد 19

ففي وقوف بكر بن حماد على القبور ولا نجد كبير اختلاف بينه وبين وقوف أبي العتاهية ومناداته على سكان المقابر حينما يقول

ما لي مررت على القبور مسلما قبر الحبيب فلم يرد جوابي

لو كان ينطق بالجواب لقال لي أكل التراب محاسني وشبابي 20

إن نقاط التلاقي في هاذين الوقوفين تظهر في المعنى أكثر منها في الألفاظ والمفردات ولكن هذا لا يعني أن الإشتراك غير موجود في هذه المفردات.

فما المناداة عند بكر بن حماد إلا إقراء السلام عند أبي العتاهية وقبر الحبيب عند أبي العتاهية هو مفارقة الأحباب عند بكر ومن أعظم بليت فيها وأجساد عنده إلى أكل التراب محاسني وشبابي عند أبي العتاهية وليكون بعذ ذلك المعنى واحد هو الوقوف بالقبور وعلى القبور وتذكر من كانوا أحياء والتفكير فيهما آلوا اليه بعد الموت.

ويظهر تأثر بكر بن حماد بأبي العتاهية بشكل مثير للنظر حيث يقول مستوحيا في ذلك نفس التراكيب الصورية.

فلا تفرح بدنيا ليس تبقى ولا تأسف عليها يا بنيا

وليس الهم يجلوه نهار تدور له الفراقد والثريا 21

ونحن نتمعن في هذين البيتين فكأننا نسمع قول أبي العتاهية

لعمرك ما الدنيا بدار بقاء كفاك بدار الموت دار فناء

وما الدهر يوما واحدا في اختلافه وما كل أيام الفتى بسواء 22

فبكر بن حماد وهو يقول الدنيا ليس تبقى فكأنه يستحضر قول أبي العتاهية لعمرك ما الدنيا بدار بقاء ويجسد البيت الثاني لبكر المفهوم ذاته الذي أراده أبو العتاهية في بيته الثاني أيضا فتأثير شعر أبي العتاهية على شعر بكر بن حماد تأثير لا حصر له ولا بأس أننا نزيد على ما أوردناه ايرادا آخر يقول بكر

إلى مشهد لا بد لي من شعوده ومن جزع للموت سوف أذوقها

ستأكلها الديدان في باطن الثرى ويذهب عنها طيبها وخلوقها 23

إن مضمون هاذين البيتين يكاد يكون منسوخا عن قول أبي العتاهية.

وإن لكل مطلع لحدّا وان لكل ذي أجل كتابا

وكل مملك سيصير يوما وما ملكت يداه معا ترابا 24

إن فكرة البيت الأول لبكر بن حماد يحمل معنى أن لكل ذي أجل كتابا ويسير البيت الثاني لبكر نفس مسار البيت الثاني لأبي العتاهية وإذا ما عدنا إلى البيت الأول من شعر بكر لوجدناه مأخوذا معنى من بيتين آخرين لأبي العتاهية يقول في الأول

أما من الموت لحي لجا كل امرئ آت عليه الفنا 25.

وفي البيت الثاني

رأيت المنايا قسمت بين أنفس ونفسي سيأتي بعدهن من نصيبها 26

وتبقى الأمثلة كبيرة من هذا القبيل بين الشاعرين ونكتفي نحن بهذا الذي أوردناه لأن الظاهرة مازالت تحتاج إلى دراسة مستقلة ومستفيضة.

كما كان للشاعر ابن الرومي وزنه أيضا عند الشعراء المغاربة الذين ظهر تأثرهم به في أكثر من معنى يقول أبو عبد الله القلعي

وأوقع من تلقاه من طار للعلا إذا لم يكن ريش الجناح القوادم 27

فهذا البيت متضمن لقول ابن الرومي

رب انصفني من الدهر فما لي إلا بك منه منتصف

يسفل الناس ويعلو معشر قارفوا الأفراق من كل طرف

ولعمري لو تأملنا هم ما علو لكن طفو مثل الجيف 28

فبخلاف الدعاء الذي تضمنه البيت الأول من قول ابن الرومي فإن البيتين الثاني والثالث يتضمنان معنى العلو والطفو اللذا ن يقابلان معنى الطيران أو العلو والوقوع في بيت القلعي.

أخيرا ما يمكن أن نخلص إليه بعد هذه الدراسة البسيطة لقضية الشعر المغربي بين التأثير والتأثر هو أن الشعر المغربي ليس عصاميا وما كان لينشأ ويتطور لولا ما كان بينه وبين نظيره المشرقي من أواصر الود والألفة رغم تباين

الأزمة وبعد الأمكنة فقد كان الشاعر المغربي معجبا بل ومبهورا في بعض الحالات بالشعر المشرقي الذي مارس طقوسه السحرية عليه وجعله يكن له الكثير من آيات الولاء والتقدير وما يتوجب تأكيده هنا هو أن الشعر المغربي والشعر المشرقي يكونان لحمة واحدة لا يمكن الفصل بينهما برغم كل المحاولات وأن تعددت فنحن لا نقدر على دراسة الشعر المغربي مفصولا عن روافده وامتداداته المشرقية.

إحالات

1العربي دحو الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية (30–230هـ)
ديوان المطبوعات الجامعية 1994ص46.
2أبو حفص عمر بن فلفول كان من كتاب يحيى
3أحمد بن محمد أبو رزاق الأدب في عصر دولة بني حماد الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979 ص151.
4نفس المرجع والصفحة
5ديوان عمر ابن ابي ربيعة دار بيروت للطباعة والنشر 1978 ص 128.
6ديوان عمر ابن أبي ربيعة ص 433
7ابن أبي المليع كان طبيبا من أطباء بني حماد
8أحمد بن محمد أبو رزاق ص 159
9أحمد بن محمد أبو رزاق ص 159
10القالمي نسبه إلى قالمة وهو من كتاب أبو يعقوب يوسف
11أحمد بن محمد أبو رزاق الأدب في عصر دولة بني حماد ص 167
12المرجع نفسه ص 168
13المرجع نفسه ص 171
14ابن قتيبة الشعر والشعراء دار أحياء العلوم بيروت ط2 1986 ص 515
15أحمد بن محمد أبو رزاق الأدب في عصر دولة بني حماد ص 159
16نفس المرجع ص 160
17المرجع نفسه ص 159
18نفس المرجع ص 160
19عمر بن قينة أدب المغرب العربي قديما ديوان المطبوعات الجامعية 1994 ص 29
20ديوان أبو العتاهية دار صادر بيروت دار بيروت للطباعة والنشر 1964 ص 39
21عمر بن قينة أدب المغرب العربي قديما ص 29
22ديوان أبو العتاهية ص 12
23عمر بن قينة أدب المغرب العربي قديما ص 29
24ديوان أبو العتاهية ص 32
25نفس المصدر ص 21
26المصدر السابق ص 60
27أحمد بن محمد أبو رزاق الأدب في عصر بني حماد ص 252
28المرجع نفسه ص 252

المصادر والمراجع:

- ابن قتيبة الشعر والشعراء دار إحياء العلوم بيروت الطبعة 2 سنة 1986.
- أبو العتاهية ديوان أبو العتاهية دار صادر بيروت دار بيروت للطباعة والنشر 1964.
- عمر ابن أبي ربيعة ديوان عمر ابن أبي ربيعة دار بيروت للطباعة والنشر 1978.
- أحمد ابن محمد أبو رزاق الأدب في عصر دولة بني حماد الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1979.
- العربي دحو الشعر المغربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإمارات الأغلبية والرستمية والإدريسية (30–230هـ) ديوان المطبوعات الجامعية 1994
- عمر بن قينة أدب المغرب العربي قديما ديوان المطبوعا الجامعية 1994